الفصل الثامن

الآثار التي ترتبت على جهود التنصير في منطقة العالم الإسلامي

١- العلمانية:

لقد كان نصارى الشرق العربي أول من دعا إلى العلمانية نقلاً عن رصفائهم في الغرب.

يقول صاحب كتاب (العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة) ليس غريباً أن يكون أول من دعا إلى العلمانية بشعارها الصريح هم نصارى الشرق فإن الحياة المطمئنة التي كفلها لهم المجتمع الإسلامي بل المحاباة الزائدة في كثير من الأحيان لم تكن تطفي نار الحقد المتأججة في صدورهم إذ كانوا يدركون أن هيمنة الشريعة الإسلامية هي العائق الأكبر بشفاء غيظهم ونفث أحقادهم فقد استماتوا في سبيل إنهاء هذه الهيمنة وإحلال الأنظمة اللادينية محلها انطلاقاً من ذلك وجد المخطط اليهودي الصليبي فيهم بغيته المنشودة لهدم الخلافة وبالتالي القضاء على الحكم الإسلامي بعزل الشريعة الإسلامية عن ميدان الحياة وتوجيه المجتمع. ولم يكن يخفى على هؤلاء ما ألحقته العلمانية بدينهم في أوربا بل أن ذلك الدافع إلى المناداة بها في الشرق لكي تقضي على الإسلام، صحيح انتشار العلمانية سوف يؤثر على النصرانية مهما بذلت الاحتياطات ولكن ما دامت تقضي على الإسلام فلا بأس على حد قول الشاعر (اقتلوني ومالكاً أو اقتلوا مالكاً معي) وجهود نصارى الشرق في هذا المضمار كثيرة لا

يتسع المجال إلى تفصيلها ولكن يمكن تقسيمها إلى قسمين:

أ- الأعمال السياسية:

وقد كانت على صلة وثيقة بالجمعيات الهدامة في الغرب وشبكات الجاسوسية العالمية وكذلك كونت الجمعيات السرية التي تناهض الخلافة الإسلامية وتدعو إلى حكومة لا دينية وطنية أو قومية ومن هذه الجمعيات (جمعية بيروت) (جمعية نمر) (وجامعة الوطن العربي) (نجيب عازوري) (والجمعية القحطانية) (وجمعية العربية الفتاة ثم الحزب السوري (أنطوان سعادة) وأخيراً حزب البعث (ميشيل عفلق).

ب- الأعمال الفكرية:

كان هؤلاء أول من نشر الثقافة الغربية مستخدمين الوسائل الحديثة سيما الصحافة فأصدروا صحفاً كثيرة)[١].

ويكتب الأستاذ يوسف العظم مؤرخاً لأعظم الجرائد انتشاراً في العالم العربي وكيف كانت أم الصحف تبشر بالأفكار الغربية وتحمل لواء هدف التبشير حيث يقول (صدر العدد الأول من جريدة الأهرام، وكان ذلك على وجه التحديد في يوم السبت الخامس من شهر أغسطس (آب) في عام ١٨٧٦م، حيث اتخذت الصحيفة صورة أهرامات الجيزة شعاراً لها انطلاقاً من حضارة فرعونية خاصة بمصر لتتقوقع على نفسها بعيداً عن العالم الإسلامي، الذي ظل ولا يزال يعدها رائدة العمل العلمي والسياسي، لما وهبت من كفاءات مبكرة وما عرفت به من كثافة بشرية تصنع منها قوة عظيمة لو تحركت بوعي وعرفت درب العمل المنظم على هدى وبصيرة.

وإمعاناً في التضليل أبرزت جريدة الأهرام في صدر عددها الأول صورة لهلال يلوح في سماء الأهرامات ذراً للرماد في عيون القراء من المصريين وما أقلهم يومئذ أو قل ما أندرهم وسط الأمة الجاهلة المريضة الفقيرة البائسة.

---

(١) سفر عبد الرحمن الحوالي، العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، دار مكة للطباعة والنشر، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٩٨٢م.

وعلى الرغم من ذلك فإن جريدة الأهرام لم تستطع أن تخفي نزعتها الطائفية حتى في عددها الأول حين أعلن محررها الخواجة سليم أفندي تقلا أسماء موزعي الجريدة في الصفحة الرابعة من العدد الأول حيث وردت أسماء الموزعين في مختلف مدن القطر المصري وشتى أقطار البلاد العربية على النحو التالي:

في الإسكندرية	الخواجا حبيب غرزوزي
في الإسماعيلية	الخواجا موسى بطايني
في المحلة الكبرى	الخواجا حبيب بولاد
في طنطا	الخواجا دهان دهان
في كفر الزيات	الخواجا إسكندر غريب
في سمنور	الخواجا جرجس روم
في رشيد	الخواجا متري موسى
في بورسعيد	الخواجا ميخائيل وطنوس خوري
في يافا	الخواجا سليم أفندي كسار
في عكا وحيفا	الخواجا جبرائيل سعد
في صور	الخواجا ميخائيل فرح
في صيدا	الخواجا البير كنفاكو
في بيروت	الخواجا فرنسيس راهبة
في متصرفية لبنان	الخواجا ميخائيل انطويتوس
في دمشق الشام	الخواجا يوسف أفندي
في طرطوس	الخواجا يوسف سكر
في حلب	الخواجا جرجس الياس كبابة
في بغداد	الخواجا سليم أفندي فرج

وعلى الرغم من هذا فإن كلمة الخواجة ليست فيما أوردنا هنا من عندنا وإنما هي اللقب التبجيلي الذي يوحي بالتقدير والاحترام في أواسط غير المسلمين وقد أوردته جريدة الأهرام مضافاً إلى هذه الأسماء.. لكنها حقيقة تكشف صور التكاتف والتحيز بين فئة الخواجات العاملة في ديار الإسلام.

وبعد هذه القائمة من أسماء الخواجات الذي أصرت جريدة الأهرام على أن يكونوا وكلاءها دون سواهم في شتى أنحاء الوطن العربي، من العراق إلى سوريا إلى فلسطين إلى مختلف أنحاء القطر المصري، نحب أن نشير إلى نموذج مما أبرزته الأهرام من أخبار في صدر العدد الأول[١].

مما تقدم أتضح لنا أن النصارى وهم أداة مؤسسة التبشير عمل منذ زمن مبكر لتحويل ولاء المسلمين إلى الحضارة الغربية بواسطة التثقيف وقاموا بمجهودات ضخمة في مجال الفكر وخططوا لها في كل أنحاء العالم العربي ولو عدنا إلى العدد الأول من الأهرام وهي نموذج للصحافة آنذاك لنرى ما هو نصيب العالم الإسلامي والعربي نجدها لم تعط العالم الإسلامي نصيبه وإنما كان كلامها عن أخبار الأباطرة والملوك والأمراء والقادة والجنرالات في أوربا.

(ونشأ في أحضان هذا الإعلام وعلى يدي هذا الإعلام الذي خطط له النصارى جيل مسلم مسخ سخرت منه الغوغائية وعبث به التهريج فزور تاريخه وطمس على بصيرته فصار يقف إلى جانب الحبشة الحاقدة على الإسلام ضد إرتريا المسلمة ومع القبارصة اليونان ضد الأتراك ونايريري في تعصبه الأعمى ضد الذين ذبحهم من العرب والمسلمين في زنجبار. وعرف الجيل المسلم بعقيدته المهزوزة وإرادته المسلوبة وفكره المنحرف وعرف الكثير عن نهرو وتيتو ولومومبا وناغور في حين لا يعرف شيئاً عن أعلام الإسلام القدامى فما بالك بالمعاصرين من أمثال حسن البنا وسيد قطب وعز الدين القسام)[٢].

ولكن لابد من وقفة لمعرفة ما هي العلمانية التي دعا لها نصارى الشام في إطار التأثير على أفكار المسلمين (إن هذه الكلمة التي تنطق عادة بكسر العين وسكون حرف اللام ترجمة ركيكة قام بها بعض نصارى الشام لكلمة أوربية هي (secularism) بالإنجليزية ولها نظائر في لغات الغرب الأخرى. والنطق الصحيح

---

(١) يوسف العظم، رحلة الضياع، الدار السعودية للنشر والتوزيع جدة، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، ٤٥.

(٢) يوسف العظم، رحلة الضياع للإعلام العربي، مرجع سابق ص١٢.

لهذه الكلمة يكون بفتح العين واللام كما في الكتابة الصحيحة لها تكون بوضع (ألف) (وبعد العين) (العلمانية) لتدل على معناها وهو النزعة الدنيوية المهتمة بشئون هذا العالم الذي نعيش فيه وليس بأحوال أو اهتمامات العالم الآخر أو الغيب وهو العالم الذي ينصب عليه بحث الدين وتعاليمه كما يفهم الغربيون وهكذا فنحن منذ البداية أمام مصطلح مقصود أو غير مقصود ونحن أمام مصطلح منقول من البيئة الغربية الأوروبية وليس لها نظير في العربية أو الفكر الإسلامي وهو يحمل وراءه ثقل قرون من المفاهيم والممارسات الغربية في مجال الدين والحياة السياسية والاجتماعية فضلاً عن أنه يتعلق بدين غير الإسلام وهو المسيحية الغربية، والكلمة بهذه الصورة تكشف لنا أن الدعوة تقع بأسرها بالكامل في سياق حركة التغريب والأوروبية والإستعمار الثقافي التي يعاني منها عالم الإسلام منذ أكثر من قرن من الزمان والتي تعتمد على أسلوب تصوير مفاهيم وأفكار الغرب على أنها مطلقة عامة وعلى أنها الحق الذي توصلت إليه البشرية في تقدمها المطرد الواصل إلى ذروته في أوربا، ومن ثم يجري فرض هذه المفاهيم دون مناقشة لها وإحلال محل أي عقائد أو تصورات أخرى في البلاد المستعمرة. ويسير هذا الفرض في ظل هيمنة المستعمرين أو حلفائهم على نواحي السياسة أو التعليم والإعلام والفكر وفي غيبة التيارات الوطنية (الإسلامية في هذه الحالة) غيبية قسرية نتيجة القوانين الجائرة والاستبداد والإضعاف والاضطهاد المتعمدة وتشويه صورتها)[١].

٢- مظاهر الانحلال بالنسبة للفرد:

أ - مظاهر انحلال عقدي تتمثل في الخروج عن عقائد الإسلام ابتداءاً من رأس العقيدة وهو التوحيد.. باعتناق مذاهب ملحدة كالشيوعية وغيرها.

ب- انحلال فكري تمثل في الإعجاب بأفكار غربية أو شرقية مناقضة لقيم الإسلام.

---

(١) محمد يحيى، ورقة ثقافية في الرد على العلمانيين ص١١.

ج- انحلال خلقي لابد أن يتبع الانحلال العقدي والفكري[١].

٣- استيراد الأيديولوجية الغربية:

(أما نحن في المجتمعات المتفسخة المنهارة فقد استوردنا البدلة ونظام الزواج والزنى والسكر والقمار والربا.. حتى في العادات ومفكرين من هذا الطراز فنحن نحتفل بكريسماس الغرب لا بمولد النبي ﷺ ولا حتى بكريسماس الشرقيين!

ولأننا نستورد الأيديولوجية فقد عجزنا عن اقتباس العلم والصناعة لأن من يستورد الأيديولوجية يكتفي باستيراد السلع الاستهلاكية ويبني الفنادق التي ينزل فيها موردو الأفكار.. ويظن أنها دلائل التقدم، ويفتح الجامعات يدرس فيها تفوق عدوه وانهيار حضاراته فلا يخرِّج إلا متطلعين للعمل في الغرب أو لحساب الغرب.

ما من أمة في التاريخ استطاعت تحقيق حضارتها من خلال أيديولوجية خصمها وقد تكون ثورة الغرب هي أجمل أشكال التمرد ولكنها تغدو أقبح أشكال العبودية إذا ما قمنا باقتباسها لحضارتنا، أو حاولنا نخرج بواسطتها من تخلفنا.

اضربوا لنا مثلاً واحداً عن حضارة ظهرت من خلال اعتناق أيديولوجية خصمها)[٢].

والعلمانية مبدأ مستورد للعالم الإسلامي بل هو مؤامرة خطيرة - يقول الدكتور/ يوسف القرضاوي: (والعلمانية من ناحية أخرى، ضد أصالتنا وسيادتنا، لأنها مبدأ مستورد من خارج أرضنا، ومن قوم غير قومنا لهم تاريخ غير تاريخنا ومفاهيم غير مفاهيمنا وقوانين غير شريعتنا وأوضاع غير أوضاعنا.

إنهم احتاجوا إلى العلمانية لظروف خاصة بهم ونحن لا حاجة لنا إلى العلمانية، لأنها كانت حلاً لمشكلاتهم مع كنيستهم وهي عندنا تكون

---

(١) علي محمد جريشة، مطبوعات العالم الإسلامي مكة المكرمة، ص٧٧-٧٨.

(٢) محمد جلال كشك، النكسة والغزو الفكري، دار الكاتب العربي، بيروت، الطبعة الثانية جمادي الأول ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م ص١٤٥.

مشكلة في ذاتها[١]. والعلمانية وهي بهذه الخطورة قادها إلى العالم الإسلامي التبشير والمبشرون.

٤- تقطيع أوصال الخلافة

برغم كل ما أحدثه التبشير من تخريب لم يتخل الغرب عن العنف تأييداً لهذا التخريب العقلي والقلبي.. بالسند العسكري والسياسي وإسهاماً بهذه الوسيلة في تحقيق نفس الغاية. واتفقت الدولتان العظيمتان في ذلك الحين على تقطيع أوصال دولة الخلافة وتوزيع أملاكها[٢].

إن هذه المؤسسات ذات الأهداف والوسائل والتي قدمت إلى العالم الإسلامي في زمن مبكر ودلفت إلى عقول وقلوب المسلمين إذ (أيقن أعداء الإسلام أنه لا سبيل إليه وعقيدته حية في قلوب المسلمين وكانت بداية التبشير وهذا ما صرح به (ملخص تاريخ التبشير لادوين بلس أشار إليه أ. ب شاتليه نقلها إلى العربية محب الدين الخطيب ومساعد اليافي تحت عنوان: (الغارة على العالم الإسلامي)[٣][٤].

إن مؤسسة التبشير لم تكن وحدها التي هجمت على العالم الإسلامي هذه الهجمة التبشيرية وإنما شاركها في ذلك مؤسسات أخرى لا تقل عنها خطورة وهي مؤسسات الإستعمار والاستشراق والتغريب. وفي كل المراحل هذه المؤسسات تارة تعمل منفردة وأخرى متحدة والهدف واحد وهو السيطرة الفكرية والمادية على العالم الإسلامي وقد حققت الكثير في هذا المضمار.

ولم تكن الأمة الإسلامية مستسلمة لهذه الهجمات على الرغم من أن المسلمين أصابهم الوهن آنذاك فقد شهدت الأرض الإسلامية جهاداً متواصلاً

---

(١) علي محمد جريشة، أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، شريف الزريق، دار الاعتصام، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ص٣٥.

(٢) علي محمد جريشة، التخطيط للدعوة الإسلامية، مرجع سابق، ص٧٧-٧٨.

(٣) علي محمد جريشة، أساليب الغزو الفكري، مرجع سابق ص٧٧-٧٨.

(٤) المرجع نفسه، ٧٧-٧٨.

وصراعاً عنيفاً قامت به الشعوب الإسلامية طرداً لهذه الهجمة استطاعت لحد كبير أن تحافظ على ما بقي من الروح غير أن هذا الموضوع الذي خصصناه للتبشير لا يتسع فيه المجال بطرح أنواع المقاومة وأين نجحت وأين أخفقت ولا يتسع لتقديم هذه المقاومة، حسبنا أننا نشير إلى كتاب هام عالج هذا الموضوع ويمكن الرجوع إليه، وهو كتاب تحت عنوان (الصراع بين العلمانية والإسلام في الشرق الأوسط) للكتاب السوداني أمين حسن عمر[١].

وأخيراً أود أن أوضح أن هذا البحث واحداً من مجموعة أوراق عن أعداء الأمة الإسلامية في العصر الحديث وهذه الأوراق توضح آثار الأعداء على الأمة الإسلامية وهي آثار ثقافية واجتماعية وسياسية، وفي هذا البحث قصدت أن أسلط الضوء على مواضيع أساسية وإستراتيجية في مجال التنصير وهي التعريف والنشأة والأهداف والوسائل والأعمال ومقارنة بين التنصير والاستشراق وأخيراً الآثار التي ترتبت على جهود التنصير في منطقة العالم الإسلامي وتركتها هذه الهجمة في البلاد الإسلامية.

والهدف من هذا البحث أخذ العبرة ووضع التخطيط الذي يكافئ هذا الهجوم وقد قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف: ١١١].

(١) المرجع نفسه ٧٧-٧٨.